

تمثلات الجمال للجسد الأنثوي "الحمام الشعبي أنموذجاً" —دراسة ميدانية بحمام شعبي — بن زيان خيرة

جامعة محمد بن أحمد وهران 2

kbenzian4@yahoo.fr

تاريخ الإرسال: 2020/04/01؛ تاريخ القبول: 2022/10/06

Abstract

This study aimed to highlight the place of the popular pigeon for women in the local community as a purifying and aesthetic space that women resort to on festivals and occasions to cleanse and beautify her body through a series of practices and functions that take place in the bathroom for this purpose. Adorning was related to the ritual hygiene, as the woman adorns after a shower using multiple means of adornment, whether they are artificial or natural, and this confirms the interest of women in the body, cleanliness and beauty in the local community, as it has become a cultural social imperative to gain an ideal and distinct body, considering the body as a social production.

Key words: figurines, female body, folk bath, social space, beauty.

المخلص:

تهدف هذه الدراسة إلى إبراز مكانة الحمام الشعبي بالنسبة للمرأة في المجتمع المحلي، باعتباره فضاء تطهيري وتجميلي تلجأ إليه المرأة في الأعياد والمناسبات، من خلال سلسلة من الممارسات والوظائف التي تحدث في الحمام، إذ تنزّين المرأة بعد الاستحمام باستعمال مواد ومستحضرات الزينة المتعددة سواء كانت مصنعة أو طبيعية وهذا ما يؤكد اهتمام المرأة بجمالية جسدها بالجسد نظافة؛ حيث أصبحت حتمية اجتماعية ثقافية لاكتساب جسد مثالي، ومتميز باعتبار الجسد نتاجاً اجتماعياً.

الكلمات المفتاحية: التمثيلات، الجسد الأنثوي، الحمام الشعبي، الفضاء الاجتماعي، الجمال.

مقدمة

من المعلوم أن المرأة تعير اهتماما كبيرا لجمالها ورشاققتها، لأنها تعتبر في جميع الثقافات رمز الجمال والإغراء والفتنة، فيتغزل الشعراء بجمال حبيباتهم ويرسم التشكيليون مفاصل المرأة في لوحاتهم ومنحوتاتهم وغيرها، حيث تكاد لا تخلوا أي حضارة قديمة من آثار هذه الرمزية التي تقرر المرأة من فضاء المنزل إلى الفضاء الخارجي، إما إرضاء لرغباتها الشخصية في أن تكون في أبهى صورها، أو مراعاة لمحيطها لتبدو الأجمل في نظر الزوج أو الأقارب، أو جلبا للأنظار في الفضاء العام.

ومهما تنوعت الغايات فلا نقاش في اهتمام المرأة بجمالها ومظهرها بما أتيح لها، فحتى النساء في المجتمعات المحافظة والمجتمعات الريفية وفي الطبقات الاجتماعية، أقل إمكانية المادية والأقل انفتاحا يحاولن إظهار جمالهن بتسريحات تواكب الموضة وذلك لإظهار جمالهن وفق ما يسمح به محيطهن، فقديماً كانت الحمامات الشعبية تلعب دوراً كبيراً في الاهتمام بجسد المرأة، نظراً للدور الكبير الذي يلعبه الجمال في الجمالية المكتسبة من خلاله، وفي مجتمعاتنا المغاربية ما يزال الحمام الشعبي ذو أهمية كبيرة لدى المرأة، ما توضحه دراساتنا الميدانية المنجزة؛ حيث أضيف للحمامات فضاء الحلاقة والتجميل، ما أكسبها تطوراً وإقبالاً ملحوظاً من طرف النساء بمختلف الفئات العمرية، ونسعى من خلال هذه الورقة البحثية إلى كشف دور الحمام الشعبي في فعل التجميل والاهتمام بجسد المرأة، وذلك استناداً لدراستنا الميدانية.

تكمن الأسس الفعلية للجمال في كل من الحمام، الماء والنظافة ما ورد في كتاب "التاريخ الطبيعي للمرأة" الذي ألفه مورو

دولاسارت Moreau de la sarthe ، إذ اعتبر الحمام المستحضر الأول والوحيد القادر على إعادة نضارة ونعومة البشرة، ولهذا أصر على أن الجمال يبدأ بالحمام والنظافة قبل المستحضرات التجميلية، الأمر الذي أكدته ماري دوسان في كتابها "الجمال"؛ حيث ذكرت أن الماء هو الوحيد القادر على تنشيط القوى وشدّ الألياف وإظهار جمال الجسد. (جورج فغاريلو، تر: جمال شديدة، 2011: ص168). وفعلاً لا يمكن للحلاقة أن تصفف الشعر دون غسله، ولا أن تضع المستحضرات التجميلية على الوجه دون تنظيف البشرة، فالحمام والماء شرطان أساسيان للجمال. ومن هنا طرحنا الإشكالية التالية: كيف تنظر المرأة لجمالها وكيف تهتم بجسدها داخل هذا الفضاء الخاص بها؟ وأدرجنا هنا فرضية أساسية تمثلت في: التمثيلات والتصورات التي تحملها المرأة نحو الجمال انطلاقاً من الحمام.

اعتمدنا في هذه الدراسة على المنهج الكيفي بتقنيتي الملاحظة والمقابلة النصف موجهة، حيث لم نقيد المبحوثات بأسئلة دليل المقابلة والإجابة عليها، بل تركنا لهن حرية الحديث عما يخصهن، وقع اختيارنا على 14 حالة منتقاة من فضاء شعبي "حمام جون روكس" بمدينة "حمام بوجر" فتّم اختيارنا لهذا الحمام لتوسطه حي شعبي كبير وانعزاله عن وسط المدينة، ونظراً لتركيبه الهندسي الجميل الجذاب، فهو مقصد العديد من النساء من كلّ ناحية ممّا ساعدنا على اختيار الحالات بسهولة.

1. دلالات الجمال

لقد اعتبر الحمام مكاناً للنظافة والتطهر والاغتسال، كما اعتبر مركزاً للجمال والزينة فرغم تطور صالونات التجميل في عصرنا، إلا أن المرأة تحمل دائماً تصوراً حول نظافة الجسد، وبالتالي الجمال، لهذا سوف يكون لديها تصوراً حول الوسيلة إلى بلوغ هذه الغاية التي هي الجمال فجعلت الحمام أحد الوسائل لجمالها وإثبات ذاتها ووجودها،

منها لتحقيق صورة معينة، والوصول إلى غاية مرغوبة من الحسن والبهاء ومستوى عالي من الجمال وهذا باهتمامها وعنايتها المتزايدة اتجاه جسدها، لا اعتبار أن الجسد يعد التمثّل الخارجي للجمال "فكان ومازال هناك سعياً دائماً ومتواصلاً من طرف الإنسان إلى تغيير صورته عن جسده." (Paul SHILDER, 1968: 219.)

يحمل الجمال أشكال متنشعبة ومتغيرة لا يمكن ضبطها "هي أصلاً مستقلة عن طريق الإنسان، وهي خاضعة لسلطة تطور انتقائية ملائمة لحفظ تغيرات مجدية." (Jean, MAISONNEUVE, BRUCHON-Schweitzer, 1999: 16) فهناك جمال ظاهري وجمال باطني؛ أي جمال الروح الذي " يتموضع في أعلى الهرم يضم لخاصات فيزيائية وخصائص ميتافيزيقية وهناك من يرى أن العادة العفة، اللطافة، والذكاء، كل هذا يساهم في تشكيل صورة المرأة الجمالية، بحيث أن ميزة عطفة وشيء من ثبات أو هدوء الروح، هي من الشروط الضرورية من أجل بقاء النساء جميلات، كما أن التربية هي في مصلحة الجمال تعتبر ضمانات متينة." (Bruno REMAURY, 2000: 146-147.)

ويربط الجمال عند البعض بالوجه، حيث يعتقد أن "الوجه هو الذي يحضى بمكانة رفيعة في جسد الإنسان، وهو الوحدة الجوهرية ويشكل الوجه بلا شك الحصة الفريدة من نوعها للهيئة لأنه يسمح بالفعل بتحقيق هوية كل واحد، في الحقل الاجتماعي الواسع." (Jean, MAISONNEUVE, 1999: 28-29) ((في حين يرى أفلاطون الجمال هو ما تمثله الروعة الحقيقية المتجسدة في تكامل ما هو باطني، مع ما هو ظاهري، ويراه متجسدا في المثل العليا وفي القيم المطلقة، ويراه أرسطو على أنه يعني التنسيق والعظمة على مستوى الظاهر المحسوس لقوله "أن الكائن أو الشيء المكون من أجزاء متباينة لا يتم

جماله، ما لم تترتب أجزاءه في نظام، وتتخذ أبعاد ليست تعسفية، لأن الجمال ما هو إلا التنسيق والعظمة." (عبد المنعم عباس، 1992: 41-71) يكمن الفرق هنا أنّ أفلاطون اهتم بالجمال الجوهرى الباطني، في حين صبّ أرسطو اهتمامه على جمال المظهر المحسوس، لذلك نستطيع القول بأن أفلاطون كان يرسم الجمال في الكلّ المتناهي ويفضل اتصال الباطني بالظاهري، أما أرسطو كان يرسمه في الجزئي المتناهي، بما أنّه أشار إلى جانب الجمال في ما هو حسيّ فقط، فالجمال يتغير حسب تغير المجتمعات، العصور، الأجيال، وحتى بين الأفراد أنفسهم؛ حيث كل أفراد المجتمع لهم القيمة الجمالية حسب الوسط الاجتماعي الذي ينتمون إليه؛ بالتالي يجسد الجمال كحتمية ثقافية عند المرأة إذ لها اهتمامها الخاص بجمالها، فهي تسعى دائما لتغيير صورتها عن جسدها لتصبح الأنا الآخر، بصفة واعية وغير واعية وذلك بتوظيف أفضل الوسائل الجمالية، العطور، الحلي والملابس من أجل صياغة مظهرها وشكلها.

فيرى كلود ليفي ستروس "أن هذه الوسائل التجميلية ودلالاتها تمثل أداة اتصال غير لغوي والثقافة إلى جانب كونها تواصلًا لفظيًا هي أيضا تواصل غير لفظي، إذ قد توجد تحركات وممارسات يقوم بها الإنسان بتفكير أو بدون تفكير لكنها معبرة، فالزينة بمختلف وسائلها تعبير يحمل ذاته معنى وهو نوع من الاتصال شديد الارتباط بسياق ثقافي اجتماعي، أي هي تكشف عن مجتمع ما وثقافة ومدلولات ثقافية تحمل خصوصيات محلية، وأخرى عالمية نجدها في مختلف الحضارات." (Claude LEVI-STRAUSS, 2001:214.)

ومن هنا تبين أن عناية المرأة بجسدها وتزيينه بوسائل الزينة المختلفة، وجدت بكل العصور والأزمنة وعرفت كل الحضارات، وإن كانت دلالاته ورموزه تختلف من مجتمع إلى آخر، إلا أنه يجمع بينهما

عامل مشترك وهو عامل البحث عن الجمال، فكل شخص ونظرته للجمال وطريقة العناية بالجسد ليصبح جميلا إضافة لجماله الطبيعي.

2. تقنيات وممارسة العناية بالجسد في الحمام

إن الذهاب إلى الحمام تزامن أسبوعيا مع الحياة الاجتماعية للمرأة، تعبيراً منها للاعتناء بجسدها وتقديسها له، ذلك من جراء ممارسات التطهير والتنظيف للجسد كاملاً "فالحمام هو مكان مفضل للجسد البيولوجي الذي يخضع لقوانين الطبيعة، لكنه المكان النموذجي للجسد الاجتماعي، باعتبار الذي يتحكم فيه الثقافة التي تتطابق مع القوانين الإلهية، وهو فضاء انتقالي ينتقل الجسد من النور إلى الظلمة ويقوده من سطح الأرض إلى العالم الجوفي" (CARLIER, Omar., 2000:1036). لهذا تكونت علاقة نفسية اجتماعية ثقافية، بين الحمام والمرأة وكذا الفضاء الهندسي بالفضاء الجسدي "فالجسد باعتباره معطى بيولوجي هو نتيجة لبناء اجتماعي وثقافي" (انظر: بلحسن مباركة، 2004): حيث يرى بيار بورديو أن الجسد هو نتاج سوسيو ثقافي وإرث حضاري له أشكال تمررها المجتمعات فيما بينها، فتأخذ ما يوافقها وما دون ذلك. ويؤكد دافيد لوبروتون أن "الجسد في مفهومه الحديث التي أصبحت السوسيوولوجية تطبق عليه مناهجها هو نتاج تراجع التقاليد الشعبية، وظهور نزعات الفردية، فالجسد يُترجم تمحور الفرد حول نفسه في نطاق تجربته ومعرفته بالأمور" (David LE BRETON, 2008: 29).

فماكس فيبر ومارسيل موس من الأوائل الذين اكتشفوا محورية الجسد للثقافة، فجاء **مارسيل موس** بمفهوم تقنيات الجسد، حيث من خلال أبحاثه في المجتمعات الشبه بدائية سجل ملاحظاته عن أنماط حياتها الاجتماعية كطرق استعمال مواد التنظيف والتطهير واستعمال (الماكياج، الوشم اللباس ...) (Marcel MAUSSE, 1967: 76). إكتشف أن لها عاداتها الخاصة في التعامل مع أجسادها تختلف الواحدة عن

الأخرى، فسامها "بتقنيات الجسد" وعرفها على أنها "فن استعمال الجسد الإنساني أو على أنها الكيفية التي من خلالها الفرد أو المجتمع، يعرف كيف يستعمل الجسد بطريقة إعتيادية." (Marc AIAIN DES CAMPS, 1986: 31) تأخذ تقنيات الجسد عنده المعادلة التالية: "technique du corps = habitus + savoir faire" يعني هذا أن تقنيات الجسد ما هي إلا نتاج الدراية بالأشياء في إنتاجها واستعماله، زائد عامل التعود أو العادة التي تكتسب أصحاب هذه الممارسات خبرة في طريقة تطبيقها. فتقوم الممارسات الجسدية داخل الحمام، هي أساس تعبير لممارسات إجتماعية ثقافية معينة، لهذا تعتبر نظافة الجسد وظيفية اجتماعية، باعتبار الجسد إنتاجا إجتماعيا.

ظاهرة اهتمام المرأة بجسدها أصبح حتمية اجتماعية ثقافية، لاكتساب جسد مثالي ومميز من خلال سلسلة من الممارسات والوظائف التي تجري في الحمام، حيث يكون موضوعها الجسد في صورته الآتية وصيرورته المستقبلية، وبالتالي فمرحلة الاعتناء بالجسد، ما هي إلا مرحلة لاحقة كمعرفة الأمور Le savoir faire des choses، فيرى كريستيان بوسيلو أن ظاهرة الاعتناء بالجسد أصبح مفروضا على الأنثى، لتصبح هذه الظاهرة راهنا جديدا فيقول: "إنه في الحقيقة القلق الذي بدا يعترينا اتجاه أجسادنا والكيفية التي يتوجب علينا أن نتعامل بها معه، بدأت تغرس جذورها في قيم الأفراد الثقافية والمعرفية والمادية وبالتالي أصبحت تشغل حيزا كبيرا من المشاعر ذات الأبعاد النفسية والاقتصادية." (Christian POCIELLO, 1989: 153-155) ولقد أكد دبوردي قاي على أننا نعيش في مجتمع يؤمن بسلطان الجسد والمظاهر، وأن النساء أكثر الفئات تشجيعا لذلك.

وكنتيجة لما طرحناه حول الجسد الأنثوي، نجد أن المرأة تبحث دائما على أن تمتلك جسدا مثاليا يكون خاصا بها لوحدها، والمثير في الأمر أن لا جسد يشبه الآخر إذ لكل فرادته والنظرة إلى الجسد تختلف

باختلاف الأذواق وتنوعها، فهناك من يصنع صورة مثالية كنموذج يطمح في الوصول إليه، ولذلك فالمرأة تسعى دائما لأن تظهر جسدها إظهارا مثاليا خاصا بها.

3. الحمام الشعبي وفوائده الجمالية

يعتبر الحمام لدى المجتمع المحلي قبل كل شيء فضاء للنظافة والطهارة، كما أنه مكان للمعالجة من عدة أمراض وكذا لتبادل معلومات علاجية متعلقة سواء بالجلد أو أمراض الداخلية، وهذا ما ينصح به العديد من الأطباء لمالها من بالغ الأثر في معالجة أمراض مختلفة، مرتبطة خاصة بالأمراض التي يسببها البرد "إلى جانب استعماله للطهارة الطقوسية. فالحمام اعتبر حسب التعبير الشعبي، كالطبيب الأكم – Médecin muet أو باسم العلاج الأكم، أي أنه شبيه بطبيب يعالج دون كلام، وهو اسم أطلقه الأتراك على الحمامات الشعبية لأنها تعالج الإنسان مثل الطبيب لكن دون أن تتكلم فالحمام قادر بفضل الحرارة التي تسبب التعرق الكثير، الذي يساعد في علاج التوعك وخاصة أمراض الروماتيزم والبرد، كما أن له دور جمالي للجسد من خلال إصلاحه ومعالجته. فالاستحمام في الحمام يحمل كل المناسبات الكبيرة للحياة، فالأم الحامل يعتبر الحمام بالنسبة لها كشرط لتسهيل الولادة. (E.J.Brill LEIDEN, 1975: 148/149).

وفي أوائل القرن الثامن عشر عُرفت الفائدة الطبية للحمامات سواء الطبيعية أو المعدنية وحتى الاصطناعية، عام 1761 أنشأت مؤسسة فوق نهر السين سُميت حمامات "بواتيفان Poitevin" وهي كناية عن مركب طويل تتم فيه حمامات اصطناعية حسب تعليمات الأطباء، ضمت 20 إلى 30 مقصورة ووضعت مغاطس نحاسية في طرفي الممر الرئيسي وفي سان لازار أُقيمت حمامات مات أكثر إلى الجمالية وهي حمامات "Tivoli" كانت تحتوي على ظلال ومياه نافورية وهواء نقي ومنتزهات للمرضى ومساحات فسيحة

ومقصورات عديدة، وعُرف الماء بأكبر مادة مُزيلَة للقذارة والأمراض . (جورج فغاريلو، 2011: 169-170).

وبذلك هو مؤسسة صحية مرتبطة بالعادات والتقاليد. وليس جمالية فقط وهنا طرحنا أسئلة حول الوظيفة الجمالية للحمام لأنجد أن المبحوثات أدرجن في حديثهن الوظيفة العلاجية للحمام من خلال تصوراتهن للأمراض التي تعالج في الحمام. فتقول المبحوثة رقم 02 "الحمام يفيد المرأة في صحتها لأن النظافة هي الصحة، والوسخ يسبب المرض، قديما لم يكن الأفراد يذهبون للحمام يبقون هكذا بالوسخ مما يسبب لهم المرض" وتقول المبحوثة رقم 06 "الحمام ساخن يخرج البرد من العظم وخاصة في الشتاء عندما نشعر بالبرد وتألمني مفاصلي، أذهب إلى الحمام لأحس بالدفء، كما أنه مفيد لصحة المرأة." كما تقول المقابلة رقم 01 "الحمام يكمد الجسم البخار والحرارة والماء الساخن يخرج البرد من جسمي وأشعر وكأن البرد خرج مني." كما تقول المقابلة رقم 11 "الحمام مفيد للجلد يصفيه من الزيوت والوسخ ويجعله رطب وجميلا " وتؤكد المبحوثة رقم 12 "أنا مريضة بمرض الروماتيزم لا يمكنني الاستحمام في المنزل أذهب إلى الحمام فيتوقف عني الألم" كما تقول المقابلة رقم 14 "الحمام مفيد خصوصا المرأة الحاملة في الشهر الأخير من حملها الطبيب ينصحها للذهاب إلى الحمام، وتقع في مكان ساخن حتى يساعد في فتح عُق الرحم، وتسهل عليها الولادة".

يبدو لنا بعد تحليل هذه المقابلات أن تصورات النساء للوظيفة العلاجية للحمام، تتمثل في فوائد كبيرة وكثيرة، حيث يساعد الحمام على تخفيف الكثير من الآلام وخاصة منها المتعلقة بالعظام والبرد، كأمراض الروماتيزم والأعصاب وآلام المفاصل، كما ينشط الدورة الدموية ويضيف النعومة على البشرة، زيادة إلى مساعدته في التخلص من سموم الجسد الجلدية، فضلا عن الشعور بالراحة النفسية والتجدد.

إذن يبقى الحمام حسب ما حللنا علاجاً جسدياً بامتياز كما أنه، علاج نفسي أيضاً لأن النساء عند خروجهن من الحمام يشعرن أيضاً بالراحة النفسية إضافة للراحة الجسدية. 4. وسائل الزينة المستعملة في الحمام

تمثل وسائل الزينة كل ما تتزين به المرأة خارجياً، وذلك لوجود زينة داخلية تحدث عنها الباحثين وهي الزينة الداخلية المتمثلة في الأخلاق والقيم أي كل الصفات الحميدة، وما يخصنا في دراستنا هذه هو زينة الجسد الخارجية المتمثلة في الجمال الخارجي أي الجسدي كما يقول الإمام القرطبي (أبو عبد الله القرطبي، 1964: 354). الزينة الخارجية: وهي كل ما يُدرك البصر لقوله تعالى: ﴿إِنَّا جَعَلْنَا مَا عَلَى الْأَرْضِ زِينَةً لَهَا﴾ (القرآن الكريم، سورة الكهف، الآية 7). وفي التفسير هنا يرى القرطبي الزينة كل ما ظهر على وجه الأرض من الأنعام والأموال والحرث.. الخ فهي كل ما يرغب فيه الإنسان. وهناك زينة الجسد البدنية، وهي كل جمال عند المرأة من اعتدال في القامة، وتناسق الأعضاء وجمال البشرة وسعة العيون، ووجه المرأة هو أصل الزينة وجمال الخلقة، والزينة المباحة للمرأة كل ما فيها جمال وعدم الضرر بالشروط المعتمدة، ويدخل في ذلك لباس الزينة كالحرير، والخلي والطيب، ووسائل التجميل المعروفة، والزينة تلبية لنداء الأنوثة فهي واجبة على كل النساء لأنها عامل أساسي لإدخال السرور على الزوج. (عبد العزيز عمرو، 1983: 366).

ويرتبط التزيين بطقوس النظافة إذ تتزين المرأة غالباً بعد الاستحمام فهي تحرس أن تبدو جميلة ولإكمال صورتها تستعمل وسائل الزينة المتعددة، سواء كانت طبيعية أو مصطنعة وبناءاً على المقابلات والملاحظات المجرات، توصلنا إلى النتائج التالية فيما يخص مواد الزينة التي تستعملها النساء في الحمام.

فمن خلال ملاحظتنا إلى جانب هذه المواد التي تستعملها النساء في الحمام، وجدنا أن النساء المتزوجات حديثاً يأخذن كل أوقاتهن في استعمال الماكياج، ومما يزيد من جمالهن ارتدائهن حليتهن من الذهب، لذلك تقضي النساء مدة أطول من الرجال في الإستحمام، وهذا يدل على إهتمام المرأة بجسدها، معظم التأكيد وجلب الحسن وقع على المرأة ليس على الرجل، فالعناية بالجسد نظافتها وتجميلها أعتبر واجب على المرأة وحق من حقوق الزوج اتجاه زوجته، فالإهتمام بذاتها كان أساس من أجل الآخر أي الرجل، هذا ما لاحظناه خلال الميدان أن النساء المتزوجات قبل خروجهن من الحمام أي بعد عملية النظافة التامة يلبسن أجمل الثياب، ويتعطرن بأجل العطور ويتحلين ويستعملن أجود أنواع المكياج وهذا لإخراج الذات على أحسن وجه لجلب الآخر، حيث تقول **سمية نعمان جسوس** في هذا الأمر " إن المرأة المتزوجة خلافا للفتاة، مضطرة لإثارة انتباه زوجها بالحلي والتزين، فالموانع التي تعوق الفتاة العذراء لا تستقيم عند المرأة التي تجد زوجها الشرعي في سريرها، فالتزين وحل الشعر يعتبران من نصيب النساء المتزوجات." (سمية نعمان جسوس، تر: عبد الرحيم خزل، 2003: 224-225)

1.4. الحناء والسواك

تعتبر **الحناء والسواك** مادتين أساسيتين لا تستغني عنهما المرأة، وهي أكثر رواجاً في الزينة التقليدية، إلى جانب أنهما مادتين تجميليتين، كما تعدان مادتين إستشفائيتين، ومن خاصية **الحناء** الوقائية، حماية الأقدام من الشقوق وحرارة الأرض، كما تستعمل في تقوية الشعر وتكسبه لونا لامعا، فهي ترمز للبركة ويُقال إن رائحتها من الجنة. (صوفية السحيري بن حثيرة، 2008: 219) فهي ترمز إلى الفرح والسعادة وتحتل مكانة هامة في مظاهر الحياة اليومية ولكن

خاصة في مناسبات معلومة، فقد لاحظنا حضورها في مناسبات يمكن أن نعتبرها طقوس انتقال Rites de passage والتي هي بالأساس طقوس اجتماعية لكنها في جوهرها طابعا دينيا. (Malek CHEBAL, 1995:197). فوضع الحناء يرتبط بجلسة عائلية يركز فيها الإهتمام بالجسد، وهي جلسة طقوسية، تستعمل في كل المناسبات السعيدة والأعياد، فالعروس بمناسبة زفافها تحني يديها وقدميها، لأنها تنتقل من بنت إلى زوجة، كما تحني بها النفساء قبيل الولادة وتستعمل أيضا في مناسبات الختان، وهو طقس انتقال سبق الحديث عنه، وحتى في الطقوس الجنائزية، فقد تستعمل لإخفاء الوشم. "فاستعمل الحناء يعود إلى العصور القديمة، إذ يبدو أنها كانت من وسائل زينة المرأة الفرعونية. (Malek CHEBAL, 1995: 197). فاستعملت الحناء ولا زالت تستعمل لتحميم الشعر خاصة عند النساء المسنات لإخفاء الشيب.

وهذا ما أكدته المبحوثات ومنها تقول المقابلة رقم 07 "أنا استعمل الحناء في الحمام لتغطية الشيب في شعري، الحمام فيه البخار والحناء لونها يظهر بسرعة على الشعر، لأن الحناء تحب الماء كثيرا كي تُصفي من الشعر". وتقول المقابلة رقم 04 "استعمل الحناء كل مرة لأن شعري أصبح يتساقط فنصحوني بها كعلاج، فالحناء مع القرنفل يقوي الشعر وتمنعه من التساقط." فمن خلال هذه الإجابات نستنتج أن الحناء مازالت تستعمل في الحمام، إلى يومنا هذا فهي تستعمل في بعض الأحيان كمواد تجميلية وفي بعض الأحيان علاجية كما أنها تستعمل كمكون في بعض المواد التجميلية الخاصة بالشعر.

أما السواك فهو يجمع بين النظافة والزينة حسب ما ورد في الأحاديث النبوية الشريفة، لقوله صلى الله عليه وسلم: "إن أفواهكم طرق القرآن فطيبوها بالسواك" (ابو حامد الغزالي، د.س: 124). فيستاك به قصد نقاء الأسنان وتبييضها، لأنه يعالج الفم من أمراض اللثة وآلام

الأسنان، فيعطي للفم لونا جميلا كما يعطيه رائحة طيبة وله فوائد أخرى كثيرة، كشدده للبشرة ويقبض المسام. وتستعمله النساء منذ القديم كمحلول لغسل عنق الرحم، كما أنه يطلق حبسة اللسان. (محمد بن أحمد التيجاني، 1992: 133). وترى الكثير من النساء الدور التجميلي والوقائي للسواك منهن المقابلات رقم 12، 08، 07 تستعملن السواك لنقاوة الأسنان وإعطاء لأفواههن لونا جميلا. هذا يدل على أن استعمال الحناء والسواك مؤشران يدلان على العناية والإهتمام بالجسد.

2.4. العناية بالشعر

العناية بالشعر مصطلح شامل للنظافة والجمال اللذان ينطويان على شعر رأس الإنسان حيث تختلف العناية به وفقا لنوع الشعر ووفقا لمختلف العمليات التي يمكن تطبيقها على الشعر، كما تختلف أنواع الشعر من شخص إلى آخر. يُعتبر للشعر قيمة كبيرة عند الإنسان خاصة المرأة لما له من دلالات حضرية ورمزية واضحة، فالشعر عند المرأة من أثنى الأشياء لذلك اعتنت به وحافظت عليه منذ القدم فهناك أمثال شعبية تقول (المرأة يطبعها شعرها)، (شعر المرأة تاج على رأسها) وذلك لأنه يزيد من جمالها وأنوثتها، لهذا تستعمل كل الوسائل المتاحة لها من أجل المحافظة على شعرها لا لغرض جمالي فحسب، وإنما كذلك لأجل أغراض تمايزية جنسية وحتى إغرائية، فلشعر وظيفة رمزية أيضا، تتمثل في كونه مؤشر جنسي لأن شعر المرأة هو عربون أنوثتها.

وما لاحظناه من خلال البحث الميداني، أن النساء في الحمام تتفنن في تسريحات شعرهن ومشطه جيد بالمشط التي تعتبر وسيلة لتجميل الشعر، إلى جانب استعمالها للدهون وزيت الزيتون. كما أكدت لنا المبحوثة رقم 04 حين قالت " أنا قبل مجيئي للحمام بساعة أضع في شعري (الزبدة) la belle أو زيت الزيتون أو زيت آخر يفيد الشعر حتى يتغذى شعري بالزيوت لأنه جاف كثيرا. فهناك 12 حالة من 10

المدرسة تفضل استعمال الصبغة المصطنعة، ويُرجعن السبب حسب المقابلات رقم 01، 03، 06 إلى: "أصبغ شعري في الحمام أحسن من صبغه في البيت لان البخار la vapeur يجعل الصبغة تخرج بسرعة" وترى المبحوثات رقم 04، 09، 10، 14 "ولكي أصفي شعري جيدا من الصباغة يجب وضعها في الحمام وذلك لوجود الماء بكثرة" وحسب توضيحين فالبخار la vapeur يلعب دورا هاما في إنجاح عملية صبغ الشعر وإعطائه اللون المطلوب والجميل، إلى جانب وفرة الماء الذي يساعد بشكل كبير على تنظيفه وتجميله جيدا فهذه المواد تتطلب لماء الوفير لتصفيته جيدا من الشوائب والمواد الكيميائية.

كما يؤكد أن يوم ذهابهن إلى الحمام هو يوم خاص بهن، فلا تقوتهن فرصة لنظافتهن وتجميلهن، فحسب رأيهن هو يوم لتجديد وإعادة نشاطهن الذي فقد خلال مسؤولياتهن العائلية، فيقول الباحث عبد المالك بوحدية في ذلك "تعود المرأة إلى شبابها وجمالها وتجدها وزخرفتها، متعبة لكن راضية، منهكة أو منشطة لا تدري، فالمهم إنها تأخذ طريقها إلى بيتها متهية ليلية حب جميلة أعدت نفسها طويلا لإغوائها." (Marc Alain DE CAMPS, 1986: 123-126.) وتقول المبحوثة رقم 03 "أنا أضع في شعري الغاسول الطيني المغربي وهذا الغاسول من نوعية جيدة للشعر يرطبه أحسن من البلسم". فإلى جانب استعمال المواد الطبيعية للعناية بالشعر، هناك بعض النساء التي تفضلن المواد المصطنعة والصبغات و مواد كيميائية لترطيب الشعر مثل Wella Newliss، والآن ظهرت الكيراتين كمادة لترطيب الشعر، فهناك علاقة وطيدة بين التجميل والنظافة ناتج عن ربط التجميل بالجسد الأنثوي. لأن معظم الحالات يعتنين بشعرهن بانتظام بدهنه بالحناء أو الزيت قبل الحمام، فيبدوا أن الزيت مادة فعالة من أجل علاج ورعاية الشعر تستعمله النساء لتنمية الشعر وتصفيفه لكي يصبح بديعا.

3.4. العناية بالبشرة

من أسرار جمال المرأة نضارة بشرتها، ولهذا تهتم بها كثيرا، لأن مدى الاهتمام بها وبنضارتها يحدّد جمالها وتفوقها على الأخريات، لذا يجب على المرأة تنظيفها والاهتمام بها، واستخدام الكريمات المناسبة لكل بشرة على اختلافها، واستخدام الخلطات والأقنعة النباتية التي يكمن فيها العلاج أيضا. فالمرأة ترغب دائما بعد حمامها للحصول على جسد ناعم ومتكامل وصافي، لأن الحمام يُعتبر فرصة لها للعناية ببشرتها، فتقوم في مكان مخصص لفعل ذلك بإزالة شعر الإبط والذراعين والفخذين والعانة، وتستخدم لهذه الغاية في الكثير من الأحيان عجينة من الكارميل المكثف بالحامض "la cire" أو مراهم إزالة الشعر "Veet, Venus" أو عن طريق شفرات الحلاقة "Gillette" ففي معظم الثقافات، يحدث أن يكون الزغب غير مرغوب فيه على اليد، لأن المطلوب غالبا، هو ذلك الجسد الناعم، لأن الشعر الزائد يعتبر قدارة وغير مرغوب فيه على جسد المرأة لأنه يعني الإسترجال والشيخوخة، ولذلك يعد من المشاكل الثقافية لدى الأنثى فهناك 76% من نساء المغرب يعتقدن أن نتف الشعر الزائد مرتبط بالزواج والنظافة والجنس. (عبد الوهاب بوحديبة، ترجمة محمد علي مقلد ، 2000: 213).

ومن خلال المقابلات التي أجريناها داخل الحمام اكتشفنا أن بعض النساء اللاتي تعاني من تراكم الدهون على الوجه صاحبات البشرة الدهنية "Peau grasse" فالحمام فرصة لهن لتخلص من تلك الدهون الزائدة، وذلك باستعمال المواد الطبيعية لقضاء عليها، لأن الحرارة والبخار تفتح مسامات الجلد، مما يسمح بخروج تلك الدهون. هذا ما صرحت به المبحوثة رقم 01 "أنا احضر معي الليمون وأطلي به وجهي في الحمام لأن المسامات تنفتح وتخرج الزيوت من وجهي". وتقول المقابلة رقم 04 "أنا أضع على وجهي الغاسول الطيني

لأنه ينقي جلد الوجه من الوسخ ويقضي على كل الزيوت فيه، ويتخلص الوجه منها ويصبح براق ورطب." وتصرح المقابلتان رقم 02 و 09 "أنا قبل ذهابي للحمام أصنع خلطات منها الصابون المطحون مع الحليب، ونخلط مليح حتى تصبح كريمة، وأضعها على وجهي، عند دخولي في الفضاء الساخن من الحمام أتركها لمدة 05 دقائق، استعملها في الحمام فقط لأن البخار يساعد خروج الزيوت من البشرة."

وهذا ما لاحظناه مع صاحبات البشرة الدهنية "Peau Grasse" كما سبق وأشرنا لذلك، أما في حالة البشرة الجافة "Peau Sèche" فنقول **المقابلة رقم 04** "قبل مجيئي للحمام أحضر كريمة مصنوعة بقليل من الزيت الزيتون مع صفار البيض ونخلطهم جيدا حتى تصبح كريمة وعندما أحضر للحمام وأتعرق جيدا أضع هذه الكريمة على وجهي كامل أبقى 05 دقائق حتى 10 دقائق وبعدها أغسل وجهي بالصابون هكذا تصبح بشري رطبة ولامعة."

من هنا نلاحظ أن المواد الطبيعية المستعملة للزينة هي في نفس الوقت وسائل وقائية وعلاجية اكتسبت عن طريق تبادل المعارف حيث تقول **فاطمة المرنسي** في هذا الصدد أن "أسرار التهذيب هذه الأنافة والزينة تشكل أشياء والزينة، تشكل أشياء ثمينة، في مجتمع يمنح أهمية كبرى للجمال المادي، ويطفي قيمة كبيرة على نمط الحياة الأرستقراطية المدنية، ولذلك فإن قدرا كبيرا من المعارف التي يمررها المجتمع إلى الفتاة تتعلق بتقنيات متعددة وتركيبات تشمل الأعشاب والأزهار والبذور والأحجار المعدنية، لصنع قناع يحفظ الوجه أو مادة لغسل الشعر أو وسائل للزينة، وأغلب النساء المغربيات لازلن يستعملن هذه التقنيات التقليدية، رغم أهمية منتجات الزينة المستوردة من الخارج." (فاطمة المرنسي، ترجمة زهراء زريول، 1987: 100).

إذن عالم العناية بالبشرة ارتبط بالجسد الأنثوي، من خلال الوصفات التجميلية التي استعملتها المرأة عبر التاريخ حسب تعليق **خلود السباعي** "ولعل ذلك ما يفسر الكم الهائل للوصفات التجميلية التي أنتجتها النساء عبر التاريخ، من أجل التحكم في هذا الجسد وإخضاعه لمقتضيات الجمال المسطرة ثقافياً، فقد أنتج عالم الحريم عدداً من الوصفات الجمالية الخاصة بكل منطقة من الجسد على حدى، فهناك وصفات لترطيب وأخرى لتعطيره وترطيبه وتنقيته." (السباعي خلود، 2011: 76). وهذا طبعا ما لاحظناه في المجتمع المحلي الذي قُمنَا بدراسته على أن النساء مازلن يهتمن بأجسادهن وبشترتهن باستعمال المواد الطبيعية التجميلية وذلك نظراً للفائدة الناتجة عن هذه المواد بعد مداومتها، كما أن مواد التجميل الحديثة تُعتبر باهظة الثمن بالنسبة للمرأة في المجتمع المحلي، وكل هذه المواد الاصطناعية مصنوعة بالمواد الطبيعية المعروفة، فما كان على المرأة إلا استعمال المواد الطبيعية بشكل جيد وبثمن معقول.

4.4. الحلي والماكياج

تُعرف **الحلي** على أنها الأدوات والأغراض التي تستخدم للزينة، من قبل المرأة خصوصاً، ويُقال "مصدرها من "حلو"، ومعناه الشيء الجميل، وكلمة "حلي" (ابن منصور، 2003: 1232) هي كلمة بدأ استخدامها منذ القديم، واستبدل استعمال كلمة حلي الآن **"بالمجوهرات والأكسسوارات"**. وهي تتمثل في القلادات والخواتم، والأساور، والأقراط، وما يُزين الأرجل بما يُعرف بالخلخال، وهي غالباً من ذهب أو فضة، ومعادن أخرى والأحجار الكريمة كذلك.

عُرفت صناعة **الحلي** على مدار العصور والسنين، حيث تختلف من مجتمع لآخر، فكل مجتمع يحمل ثقافة جمالية تميزه عن الآخر، فهي نوع من أنواع الزينة التي تصنف الجمال وهو علامة من علامات الثروة ووسيلة من وسائل الإدخار. فالحلي بالنسبة للمرأة جزء لا

يتجزأ من عالمها ومن أدوات الزينة وكذلك وسيلة للتباهي وإشعار الآخر بالقُدرة على موازنة الموضة فتنوع وسائل الزينة نوعا من أنواع الاتصال المختلفة شديدة الارتباط بسياق ثقافي واجتماعي، وعلى تعبير يحمل في ذاته عدة معان يحاول الإنسان الإشارة لها من خلال إرادتها. (صوفية السحيري بن حيرة، 2008: 233).

فالحلي التي تستخدمها المرأة في أنحاء مختلفة من الجسد، تحمل مدلولات رمزية، تشير إلى غايات معينة يزيد من يرتديها إيصالها للآخر، وعناية المرأة بزينة جسدها هو لفانيتها أساسا لكي لا تطمح نفس الزوج إلى غيرها، لأن الجسد يُمثل رأس مال الاجتماعي للمرأة فلا وجود لذاتها بل كيان تابع للرجل، لا يتسلط نظره إلا على الجسد، لهذا لا بد على المرأة أن تزين جسدها وتهتم به قدر الاهتمام، حتى لا يتحول إلى جسد مُبتذل يفقد طاقته مما قد يؤدي إلى إهماله وطموح الرجل إلى غيرها، وهذا يعني أن وسائل الزينة لها دور في جذب الجنسين بعضا لبعض وفي إثارة الرغبة الجنسية واستجابتها. (صوفية السحيري بن حيرة، 2008: 332).

وما لاحظناه من خلال البحث الميداني، أن كثيرا من النساء تستغلن الحمام لإرتداء حليتهن من الذهب والتباهي أمام النساء، إذ تخيل إليك في بعض الأحيان أنك في عرس أو حفلة، ترتدي خلالها النساء أحسن الثياب وأجمل الحلي، كما وجدنا جُل النساء إن لم نقل كلهن تقريبا يلبسن الأقراط والسلاسل والخوات الذهبية، لتصبح عادة مُلتصقة بالحمامات، لدرجة لا نجد سيدة أو شابة تدخل الحمام إلا وهي ترتدي حليها، وذلك خوفا من أن تشد الأعين إليها وتنقص قيمتها فتصبح حديث النساء، خاصة إن لم تكن في المستوى المطلوب، والأغرب من ذلك، أننا وقفنا على بعض النساء اللواتي تملكن الكمية الكافية لإغواء مثيلتهن، تستلفن الذهب من الأخت أو الأم أو الابنة للتباهي به حتى تكون "نجمة الحمام". وإلى جانب الحلي تستكمل المرأة تجميلها

بوضع "الماكياج" الذي يعد من الوسائل البسيطة التي تحصل تجميل الوجه، فالمرأة تضع "الماكياج" من أجل تدعيم اعتبار لذات أو نفس حائرة القوى (تكون، عيوب، نرجسية) (Jean MAISONNEUVE, BRUCHON-Schweitzer, 1999: 175.) ومحل الأنظار، وذلك لعكس انطباع جميل وبناء جيدا عند الآخر، الذي يبني هو الآخر صوراً وفق المظهر الخارجي للشخص، الذي يراه ويتعامل معه في أطر الحياة المختلفة.

• خاتمة

إن عناية المرأة بجسدها وتزيينه بوسائل الزينة المختلفة، وُجد بكل العصور والأزمنة وعرفته كل الحضارات، لكن دلالاته ورموزه تختلف من مجتمع إلى آخر، إلا أنه يجمع بينهما عامل مشترك وهو عامل البحث عن الجمال، فكل شخص ونظرته للجمال وطريقة العناية بالجسد ليصبح جميلاً إضافة لجماله الطبيعي، فالمرأة في المجتمع المحلي المدروس تبحث دائماً على أن تمتلك جسداً مثالياً، يكون خاصاً بها لوحدها، والنظرة إلى الجسد تختلف باختلاف الأنواع وتنوعها، ولذلك فالمرأة تسعى دائماً لأن تُظهر جسدها إظهاراً مثالياً خاصاً بها، كما أن المرأة هنا مازالت تعتمد على الطرق والوسائل الطبيعية والبسيطة في التجميل والأناقة.

لهذا اعتبر اهتمام المرأة في المجتمع المدروس بجسدها تنظيفاً وتجميلاً واجباً عليها وحق من حقوق الزوج، فاهتمام بذاتها كان أساساً من أجل الآخر وجلبه بحسبها، لهذا تحرص المرأة على أن تبدو جميلة تتوفر فيها مقاييس الجمال، ولإكمال صورتها المثالية تستعمل وسائل الزينة المتعددة سواء كانت طبيعية أو مصنعة، فالحمام مازال يحافظ على وسائل التقليدية للزينة كالحناء والسواك والغسل، فإلى جانب دوره الجمالي فله دور استشفائي، وبالنسبة للحالات المدروسة الحمام أفضل مكان للاستعراض والتباهي بأجمل ما لديهن من وسائل

الاستحمام واللباس والحلي والمكياج لإغواء مثيلاتهن وتكون نجمة الحمام.

كما وجدنا أن فئة النساء حديثات الزواج لهن فرصة لاستعراضهن والتباهي والتعويض عن النقص، فنرى أنهن يقصدن الحمام مرتديات أفضل الملابس والمجوهرات، فمازالت المرأة لا تستغني عن الحمام الشعبي كفضاء تطهيري وتنظيفي، إضافة إلى جعله فضاء تجميلي من خلال المستحضرات الطبيعية التي تحضرها وتستعملها في الحمام نظرا لفائدة البخار في فتح المسام وتجميل الجسد.

المراجع

1. القرآن الكريم
2. ابن منصور. (2003). لسان العرب. لبنان، مجلد 14: دار صادر.
3. ابو حامد الغزالي. (د.س). احياء علوم الدين. بيروت، دار المعرفة.
4. أبو عبد الله القرطبي. (1964). الجامع لأحكام القرآن تفسير القرطبي ج 10 ، مصر، دار الإحياء التراث العربي.
5. بلحسن مباركة. (2004). "المرأة والجسد"، مقاربة أنثروبولوجية في الوسط التندوفي، رسالة ماجستير غير منشورة لنيل شهادة الماجستير تخصص علم الاجتماع جامعة وهران 2، الجزائر.
6. جورج فغاريلو، تر: جمال شحيدة. (2011). تاريخ الجمال الفن والتزيين من عصر النهضة الأوروبية إلى يومنا، ط1، لبنان، بيروت، المنظمة العربية للترجمة، مركز دراسات الوحدة العربية.
7. السباعي خلود. (2011)، الجسد الأنثوي وهوية الجندر، ط1، بيروت، جداول للنشر والتوزيع.
8. سمية نعمان جسوس، تر: عبد الرحيم خزل. (2003)، بلا حشومة الجنسية في المغرب ، ط1، المغرب، المركز الثقافي العربي.
9. صوفية السحيري بن حثيرة، (2008)، الجسد والجمع، دراسة أنثروبولوجية لبعض الاعتقادات والتصورات حول الجسد، بيروت، لبنان، دار الانتشار العربي.

10. عبد العزيز عمرو. (1983)، اللباس والزينة في الشريعة الإسلامية. جدة، السعودية، دار الفرقان للتراث الإسلامي.
11. عبد المنعم عباس. (1992)، فلسفة الفن وتاريخ الوعي الجمال. الإسكندرية، مصر، دار المعرفة الجامعية.
12. عبد الوهاب بوحدية، ترجمة محمد علي مقلد، (2000). الجنسانية في الإسلام، تونس، دار النشر سرائش.
13. فاطمة المرنيسي، ترجمة زهراء زريول، (1987)، الجنس كهندسة إجتماعية بين النص والواقع، المغرب، دار النشر الفنك.
14. محمد بن أحمد التيجاني. (1992)، ثحفة العروس ومتعة النفوس، بيروت، لبنان، رياض الريس للكتب والنشر.

15. Bruno REMAURY, (2000) , Le beau sexe faible, les images du corps féminin entre cosmétique et santé .Paris, Grasset.

16. CARLIER, Omar, (2000), les enjeux sociaux du corps , Le Hammam Maghrébin (XIXe-XXe siècle), Lien prenne, Menacé ou recrée ,« In Annales histoire, Sciences sociales , Editions de l'école de Hauts études en science sociales.

17. Christian POCIELLO, (1989) , structure et parisstructure et involution des loisirs sportives dans la société française de 1975 a 1995 ., Paris, Université de paris.

18. Claude LEVI-STRAUSS, (2001) , tristes tropiques, Paris, Plon.

19. David LE BRETON, (2008) , La sociologie du corps, Paris, PUF.

20. E.J. Brill LEIDEN, (1975) , Encyclopédie de l'isla, Paris, TOME 3, G.P. Maisonneuve et la rose S.A.,

21. Jean MAISONNEUVE, BRUCHON-Schweitzer, (1999), le corps et la beauté, paris, PUF.

22. Jean, MAISONNEUVE, BRUCHON-Schweitzer, (1999), le corps et la beauté, PUF.

23.Malek CHEBAL, (1995), dictionnaire de symbole musulmans, rites mystiques et civilisation, Paris, Albin Michel.

24.Marc Alain DE CAMPS, (1986) , l'invention du corps, France, P.U.F.

25.Marc ALAIN DES CAMPS, (1986) , l'invention du corps, France, PUF.

Marcel MAUSSE, (1967) , Manuel d'ethnographie, Paris, Payot.

Paul SHILDER, (1968) ,L image du corps, Paris, Gallimard

للإحالة على هذا المقال:

-خيرة بن زيان، (2023)، « تمثالات الجمال للجسد الأنثوي "الحمام الشعبي أنموذجاً" - دراسة ميدانية بحمام شعبي -». المواقف، المجلد: 19، العدد: 01، جوان 2023، ص.ص 1055-1076.